

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

□ التوحيد في شعر محمد إقبال*

نبيل فولي محمد

إن اتفقنا منذ البداية على أننا هنا - ونحن ندرس جانبا عقديا في شعر محمد إقبال - لسنا بإزاء كتاب في علم الكلام التقليدي بسمته الجدلي المعروف، فلا بد أن نوقن أننا لن نجد لديه تقسيات وتشقيقات كلامية كتلك التي ذهب إليها متكلمة المسلمين طوال قرون، بل لن نعثر في قريضه على تلك التقسيات الصوفية المعروفة للتوحيد، وإن كان شعره بالتأكيد يعكس تأثرا واضحا بالثقافتين الكلامية والصوفية - كما سنتبينه بعد قليل - إضافة إلى ما هو متوقع من مفكر مهموم بأمته - مثله - من توظيف التوحيد في علاج الأزمة الحضارية الحديثة التي يعيشها المسلمون منذ بضع مئتين من السنين.

لقد وجد إقبال في عقيدة التوحيد الإسلامية ثراء أتاح له مساحات واسعة للتعبير عن معانيه، وتوظيفها في معادلات عقلية وذوقية وحضارية، ولعل هذا ما يمكن تبينه في العناصر الثلاثة التالية:
أولاً: الجانب الكلامي في عرض إقبال لمسألة التوحيد:

لا يجب إقبال الحيرة العقلية عموما، ويرى فيها ضياع المهمة، بل موتها، ويشير إلى أن سببها هو البحث فيما لا يجدي البحث فيه، أو ما لا يملك الإنسان أدوات البحث فيه، مثل كنه الإله الخالق، ولغز الحياة وسرها الدفين، فيقول في بعض شعره:

ما حياة الناس إلا سكرة
لا تضع عمرك في تفسيرها
وهي في اليقظة أو في الحلم
كثرة الحيرة موت الهمم⁽¹⁾

* لقد سبق نشر بحث بعنوان: "التوحيد: مكانته ومميزاته في العقيدة الإسلامية" للأستاذ نبيل فولي محمد في العدد السابق وهو بمثابة مقدمة لما يأتي في هذا البحث.

-1 جناح جبريل، صاغه بالعربية شعرا: زهير ظاظا، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 425. من قصيدة أردية عنوانها

ولا يعني هذا لدى إقبال أن الإنكار يمكن أن يحقق لصاحبه الطمأنينة، بل على العكس من ذلك يقع المنكر المسكين في تناقض مع الحقائق يجعله مزقا، فقد ابتعد عن الطريق السوي فكره، وند بعيدا كما يفعل الجمل الفار من صاحبه، وتاه عقله في محاولات العودة إلى الاستقرار النفسي والرضى العاطفي بلا جدوى، يقول إقبال:

إنما المسكين قال لا إلهما فكره ند ومنه العقل تاهما(2)

وفي مواجهة صريحة مع نزعة الإنكار لوجود الله تعالى، أو الإلحاد الذي رعته دول وأيديولوجيات في القرن العشرين، يقول إقبال متنقلا بين جزئي شهادة التوحيد النافي والمثبت:

لو لم تسر في ظلام الترب نابتة ما نشرت في فضاء النور أغصانا
تقضي الحياة بـ"لا" في البدء نافية وفي النهاية "إلا" تكمل الشانا
إن لم تحي بعدها "إلا" مثبتة كانت على الموت "لا" في الدهر عنوانا
إن أمة روحها لم يمض معتزما عن "لا" فقد آذنت بالهلك إيدانا(3)

وقد تكررت إشارته في شعره إلى ثنائية النفي والإثبات في "لا إله إلا الله"، وأكد ضرورة الجمع بين النفي الكامل للألوهية عن جميع الموجودات، والإثبات التام لها لله سبحانه وتعالى وحده، ومن ذلك قوله:

هب سيف "لا" لكافري وأبصر "إلا" كي في الدني ثور(4)

-
- "وه حرف رازكہ مجھ کو کھا گیا ہے جنوں"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:
حیات کیا ہے، خیال و نظر کی مجھ کوئی خودی کی موت ہے اندیشہ ہائے گوناگون
- 2- رسالة الخلود: جاويد نامہ، نقله إلى العربية شعرا: حسين مجيب المصري، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 857. من قصيدة "حضور"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:
آنکہ گوید لا الہ بیچارہ ایت فکرش از بی مرکزی آوارہ ایت
- 3- ضرب الکلیم، نقله إلى العربية شعرا: عبد الوهاب عزام، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 600. من قصيدة أردية عنوانها "لا والا"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:
فضائے نور میں کرتا نہ شاخ و برگ و بر پیدا سفر خاکی شبتاں سے نہ کر سکتا اگر دانہ
تہاد زندگی میں ابتدا "لا"، ابتدا "الا" پیام موت ہے جب "لا" ہوا "الا" سے بیگانہ
وہ ملت روح جس کی "لا" سے آگے بڑھ نہیں سکتی یقین جانو، ہوا لہریز اس ملت کا پیانہ
- 4- رسالة الشرق، نقله إلى العربية: عبد الوهاب عزام، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 320. من مقطوعة عنوانها "شعلہ در آغوش دارو عشق بے پروائے من"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:

وقوله:

من "لا إله" لنا كأس يميننا وكؤوس "إلا الله" كسرت بأيدينا
الكأس طافحة بالنفي في الأرواح والكأس في الإثبات تبكي ذهاب الراح⁽⁵⁾

والاحتفاء بهذه المقابلة بين النفي والإثبات في شهادة التوحيد تنظر إلى النفي على أنه قمة التخلص والاعتناق إن كان منطلقا إلى الإثبات، أما الاكتفاء بالنفي فهو ارتكاس في حمأة الإلحاد الأحمق الذي لا يترك لصاحبه عقلا ولا خلقا⁽⁶⁾.

ولا يكتفي إقبال بتصوير الإلحاد على أنه مرض عقلي ونفسي لصاحبه، بل هو كذلك سبب لبوار الأمم والمجتمعات التي تدين به، يقول كما سبق قريبا:

إن أمة روحها لم يمض معتزما عن "لا" فقد آذنت بالهلك إيدانا

تغ لا در پنچ این کافر دیرینه ده باز بگر در حمان بگامه الای من
5- جناح جبریل، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 423. من قصيدة أردية عنوانها "ساکتائیں نہیں پہنائے فطرت میں مراسودا"،
ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

لبالب شيشه تهذيب حاضر ہے "لا" سے مگر ساقی کے ہاتھوں میں نہیں پیانہ "الا"
دبا رکھا ہے اس کو زخمہ ور کی تیز دستی نے بہت نیچے سروں میں ہے ابھی یورپ کا اوپلا

6- على الرغم من رفض إقبال الحاسم للإلحاد، فإننا نراه في ديوان أصدره سنة 1936م، أي بعد الثورة الروسية التي
مكنت للشيوعيين بحوالي عشرين سنة يثني على الروس الذين اكتفوا - وفقا لنظرتهم هو نفسه - بجانب النفي من
شهادة التوحيد، وتركوا جانب الإثبات، وتوقع بعد أن "أطاحوا بمعايير السنن" أن تراهم "يقهرون العاصفة...
ونحو "إلا" يدفعون الموكبا"، أي يتجهون إلى إثبات وجود الله تعالى. ديوان: والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق،
أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 897. انظر: قصيدته الفارسية: "لاله الا الله"، خاصة قوله:

ہمچنان بنی کہ در دور فرنگ
روس را قلب و جگر گردیدہ خون
آن نظام کہنہ را برہم زد است
کردہ ام اندر مقاماتش نگہ
فکر او در تند باد "لا" بماند
آیدش روزی کہ از زور جنون
در مقام "لا" نیاساید حیات
لا و الا ساز و برگ امتان
بندگی با خواجگی آمد بہ جنگ
از ضمیرش حرف "لا" آمد برون
تیز نیش بر رگ عالم زد است
لا سلاطین، لا کلیسا، لا الہ
مرکب خود را سوی "الا" نراند
خویش را زین تند باد آرد برون
سوی الا می خرامد کائنات
نفی بی اثبات مرگ امتان

ومع ما بين عقلانية البراهين الكلامية وبين روح الشعر من ضعف التوافق، إلا أننا لا نعدم في شعر إقبال نماذج لتأسيس قضية التوحيد على أدلة كلامية أو شبه كلامية، فيقول في قصيدته "في الحضرة الإلهية":

نحن قوم قد جهلنا أصلنا نحن طير وأضعنا عشنا
علمنا إن كان ساء جوهرها كان للعين الحجاب الأكبر
وإذا بالعلم حققنا النظر فالسبيل والدليل يعتبر
ويريك للوجود قشره ويقول: سل، تبين سره
رام تمهيد الطريق دائما أيقظ الشوق وكان نائما
وهب النار للقلب والوجيبا ويجوف الليل قد أهدى النحيا
إنه ما فسر الدنيا لنا عيننا ربي وربى قلبنا
وإلى جذب وشوق يرفعك مثل جبريل أراه يبدعك⁽⁷⁾

فبدأ بتأكيد التيه الذي وقعت فيه البشرية حين ابتعدت عن ربها، وضلت عنه، وحالها في هذا - كما شبهه - كحال الطائر الذي ضل عن عشه، أو أضاعه بمره. والعلم إن انحرف عن غايته، فمن الطبيعي أن يحجب الخلق عن غايتهم الكبرى ومولاهم الذي أبدع خلقهم، ومع هذا فإنهم إن نظروا وحققوا المسألة بالعلم والبرهان الصحيح كان ذلك دليلا معتبرا يرشدهم، كما أن الصفحة البادية لنا من الوجود تؤدي مهمة الدلالة على سر الوجود الكامن، وهو أن له صانعا وخالقا، وهذا الصانع وضع في فطرة الإنسان شوقا ملتهدا إلى ربه، ومع أن الخالق المعبود لم يفسر لنا الدنيا بأحداثها وأشياءها، إلا أنه أعد

7- رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 855. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات موضع

الشاهد هنا قوله:

ما ز اصل خویشتن در پرده ایم	طایریم و آشیان گم کرده ایم
علم اگر کج فطرت و بد گوهر است	پیش چشم ما حجاب اکبر است
علم را مقصود اگر باشد نظر	می شود هم جاده و هم راهبر
می نهد پیش تو از قشر وجود	تا تو پرسی چیست راز این نمود
جاده را هموار سازد این چین	شوق را بیدار سازد این چین
درد و داغ و تاب و تب بختد ترا	گریه های نیم شب بختد ترا
علم تفسیر جهان رنگ و بو	دیده و دل پرورش گیرد ازو
بر مقام جذب و شوق آرد ترا	باز چون جبریل بگذارد ترا

وقد قال بعض المعاصرين كما سبق نقله: "إن في العقل البشري ميلا إلى التوحيد"⁽¹⁶⁾، وهو ما يشعر به العاقل حقا حين يقارن بين التوحيد والشرك، فيجد نفورا من الثاني وميلا بيّنا إلى التوحيد، والاعتراف بكون سيد هذا العالم واحدا لا شريك له.

مهما يكن، فقد أشار البيتان السابقان إلى أن الفطرة دليل على التوحيد، وقد تمسك الشاعر فيهما بالجمع بين طرفي الشهادة "النفي والإثبات"، وجعل النفي وحده عدما، والكون المبسوط الصفحات أمام أعيننا بوحدة نظامه، والذي طويت منه أيضًا صفحات أخرى عن حواسنا - شاهدا كبيرا على وحدانية من أوجده.

ولا يعجب إقبال أن يتحول العلم الذي يدرس التوحيد إلى مجرد كلام تلوكه الألسن دون أن يكون معه تطبيق يصوغ صورة الحياة، وهو في هذا يوجه النقد صريحا إلى علم الكلام منطلقا من كونه قائما على "الكلام" لا على الفعل والتطبيق، يقول:

فصار التوحيد "علم الكلام"	قوة كان في الحياة على الأرض
جهلنا اليوم ما له من مقام	رده في الفعل غير مضيء
من "هو الله" ما بها من حسام	قائد الجيش قد رأيت غموذا

والسلام: "الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه"، ثم قال ابن قتيبة رحمه الله: "نحن نقول: إنه ليس ههنا تناقض ولا اختلاف بنعمة الله تعالى ولو عرفت المعتزلة معنى ذلك ما فارقت المثبتة، إن لم يكن الاختلاف إلا لهذا الحديث. والفطرة ههنا الابتداء والإنشاء، ومنه قوله تعالى: **رُئِىَ نَارٌ تَأْكُلُ أَيْ مَبْتَدِئَهَا**، وكذلك قوله: **رُؤِىَ نَارٌ تَأْكُلُ أَيْ مَبْتَدِئَهَا**، وأراد بقوله: "كل مولود يولد على الفطرة" أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم: **رُؤِىَ نَارٌ تَأْكُلُ أَيْ مَبْتَدِئَهَا**، فلست واجدا أحدا إلا وهو مقر بأن له صنعا ومدبرا، وإن سباه بغير اسمه، أو عبد شيئا دونه ليقربه منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علوا كبيرا... وليس الإقرار الأول مما يقع به حكم، أو عليه ثواب... وفرق ما بين أهل القدر وأهل الإثبات في هذا الحديث، أن الفطرة عند أهل القدر الإسلام، فتناقض عندهم الحديثان، والفطرة عند أهل الإثبات العهد الذي أخذ عليهم حين فطروا" أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفري، المكتب الإسلامي، بيروت، ومؤسسة الإشراق بالدوحة، ط 2، 1419 هـ / 1999 م، ص 199-201.

جيب وعادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات، بيروت، ط 1، 1977 م، ص 79.

ما درى الشيخ أن توحيد فكر دون فعل يعد لغو كلام⁽¹⁷⁾

إنه الحزن على ماضٍ للتوحيد كان فيه قوة مؤثرة وفاعلة بما ارتبط به من فاعلية وإشراق يدفع إلى تزيين القناعة العقلية بنهج التوحيد العملي، وسبب هذا الفصام عنده هو الجهل بمهمة الأمة الإسلامية في هذا العالم.

ويبدو إقبال في خطابه الموجه إلى "فائد الجيش" وكأنه يخاطب كل من له كلمة مسموعة في الأمة، من قائد سياسي أو فكري أو اجتماعي، حتى يتنبهوا إلى أمر جلل، وهو أن زأ ب ب ب التي رفعت همما، وأعلت نفوسا، وسمت بقلوب، قد صار شأنها الآن شأن أعماد السيوف الخالية. ولم ينس في هذه الأبيات أن يلمز "المولوي" أو الشيخ - الذي ينطلق من بين شفتيه خطاب التعليم والتثقيف الإسلامي في بلاده - بأن التوحيد المثبت بالعقول دون أن يدفع إلى العمل - كما يجري تعليمه في أكثر المدارس الدينية - هو لغو من اللغو، ولا قيمة له.

ثانياً: الجانب الصوفي في التوحيد لدى إقبال:

إن البعد الذوقي في التوحيد - وسائر مسائل العقيدة الإسلامية كذلك - هو مما اهتم شعر إقبال بإبرازه، إذ لا يمكن أن يكون الإيمان مجرد عبارات وجمل ترددها الألسن وتمتلئ بها الأفواه، إنه خريطة تصوراتنا الكبرى تجاه الوجود الكبير وخالقه العظيم، وهو لهذا أجل مقاما وأرفع قدرا من الصورة الساذجة التي يفهم أكثر المسلمين التوحيد بها، ولهذا فلا بد - لكي يكون الإيمان إيماناً والتوحيد توحيداً - من أن تعيشه الذات المسلمة العابدة، وتتفعل به انفعالا عميقا يعيد صياغة مشاعرها تجاه الأشياء والأحداث، بحيث تنقاد النفس للهدى، وتنصاع لأوامر الله راغبة محبة مقبلية، وتدفع عنها نزغات الأبالسة ونزعات الهوى، يقول إقبال في بعض شعره:

17 - ضرب الكليم، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 574 - 575. من قصيدة أردية عنوانها "توحيد"، ويقابل البيتين

موضع الشاهد هنا قوله:

زندہ قوت تھی جہاں میں یہی توحید کبھی
روشن اس ضو سے اگر ظلمت کردار نہ ہو
میں نے اسے میر سپہ! تیری سپہ دیکھی ہے
آہ! اس راز سے واقف ہے نہ ملا، نہ فقیہ
آج کیا ہے، فقط اک مسئلہ علم کلام
خود مسلمان سے ہے پوشیدہ مسلمان کا مقام
"قل هو اللہ"، کی تشبیر سے خالی ہیں نیام
وحدت افکار کی بے وحدت کردار ہے خام

إنما الدين احتراق في الطلب وهو عشق ثم يتلوه الأدب (18)

يلخص شاعرنا بهذا البيت رؤيته للدين، ويستبعد أن يكون مجرد رسوم وصور، ويعده "تجربة" أو سعيًا نحو خالق هذا الوجود لا يحول دون المضي والاستمرار فيه الاحتراق نفسه. وحتى لا تطغى ظلال الألم الذي يقترن بالاحتراق، فقد أضاف الشاعر إليه العشق الذي هو إقبال نفس يضيئها الحب، لكنه لا يقطع رجاءها عن المحبوب الذي يجب أن نتحلى في تصوراتنا عنه وتصرفاتنا معه بكامل الأدب. وإقبال لا يني يؤكد أن التوحيد ليس مجرد قضية عقلية تحكم فيها البراهين والأدلة التي تصوغها العقول رابطة بين ما هو معلوم للوصول إلى ما هو مجهول. فلا هو أهمل - بهذا التأكيد - وظيفة العقل في التمهيد والتأكيد على صحة الاعتقاد بالوحدانية، ولا هو حصر هذه القضية الخطيرة في الاستنتاج والاستدلال العقلي الخالص الذي ركز عليه علم الكلام، يقول في إحدى قصائده معترفًا بالعقل، لكن دون استغناء عن الإيمان:

العلم أطلق الحياة الراقدة	في شعوذات من عصور بائدة
من كل سحر عصرنا محاش	بلا عصا الكليم لا يعاش
ذو العقل مثل نصل سيف عقله	بألف أسلوب يتم صقله
والحب مسكين شريد زاهد	وما له إلا طريق واحد
حجاجة تظل في تلهف	لا يعرفون ترف التوقف (19)

ومع هذا، فهو يرى أن الجمع بين ذكاء العقل وزكاء القلب معا هو الصورة المثلى لإنتاج حياة

18 - رسالة الخلود - جاويد نامہ، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 871. من قصيدة تحت عنوان "خطاب بہ جاوید سخنی بہ نثراد نو"، والبيت موضع الشاهد يقول فيه:

دین سراپا سوختن اندر طلب
انتہائش عشق و آغازش ادب

19 - جناح جبریل، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 452. من قصيدة أردية عنوانها "تازہ پھر دانش حاضر نے کیا سحر قدیم"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

تازہ پھر دانش حاضر نے کیا سحر قدیم	گزر اس عہد میں ممکن نہیں بے چوب کلیم
عقل عیار ہے، سو بھیس بنا لیتی ہے	عشق بے چارہ نہ ملا ہے نہ زاہد نہ حکیم
عیش منزل ہے غریبان محبت پہ حرام	سب مسافر ہیں، بظاہر نظر آتے ہیں مقیم
ہے گراں سیر غم راحلہ و زاد سے تو	کوہ و دریا سے گزر سکتے ہیں مانند نسیم
مرد درویش کا سرمایہ ہے آزادی و مرگ	ہے کسی اور کی خاطر یہ نصاب زر و سیم

طيبة وعالم رائع. ويبدو هذا الموقف نتيجة طبيعية لما رآه الشاعر الخبير بالشرق والغرب معا من تقصير الشرق في جانب وتقصير الغرب في آخر، ومعاناة البشرية هنا وهناك نتيجة لهذا الفصام، فلا التدين المنعزل عن الحياة حقق لها الأمان وأشبع ضروراتها، ولا التحضر المنعزل عن الدين حقق لها الطمأنينة النفسية واليقين العقلي. وهنا يبدو الشاعر كمن يحلم لبني جنسه أن يستعيدوا أسلافهم، ويقفوا على ضفاف الحياة وقوفا صحيحا، لا يجرمها أي ميزة يمكن أن يحصلها الجنس البشري من رحلته هنا، يقول إقبال:

إن في الغرب الذكا أصل الحياة والهوى في الشرق سر الكائنات
 وبعشق يعرف الله الذكاء ولعشق بالذكاء ذا العلاء
 وإذا العشق الذكاء صادقا عالما آخر قطعاً حققا
 أنهضن العالم الثاني اصنعن بالذكاء ذلك العشق امزجن⁽²⁰⁾

وتبدو كثرة الألفاظ المعبرة عن التداخل بين الروحانية الشرقية والعقلانية الغربية "صادق - اصنع - امزج" حرصا من شاعرنا على أن تكون العلاقة بينها توحيدها حقيقيا بين المزاجين، وليس جمعا شكليا أو مفتعلا بين التدين وصناعة الحياة، وهو ما يراه متحققا في القرآن الكريم، فيقول في القصيدة نفسها بعد أن يحذر الشرقيين من الافتتان بالإنتاج المادي للغرب:

وإذا دنيا رثت ثوبها قدم القرآن دنيا غيرها⁽²¹⁾

وفي سياحة كونية قطعها إقبال مع التوحيد بالعقل والقلب معا يقول عن كلمة التوحيد:

نقطة دار عليها العالم كلمة صار إليها العالم

20- رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 738. من قصيدة "شرق و غرب"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

غربیان را زیرکی ساز حیات شرقیان را عشق راز کائنات
 زیرکی از عشق گردد حق شناس کار عشق از زیرکی محکم اساس
 عشق چون با زیرکی همبر شود نقشیند عالم دیگر شود
 نیز و نقش عالم دیگر بن عشق را با زیرکی آمیز ده

21- رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 739. من قصيدة "شرق و غرب"، ويقابل البيت موضع الشاهد هنا قوله:

چون کس گردد جهانے در برش می دهد قرآن جهانی دیگرش

قوة فيها تدير الفلکا	وبها الشمس تنير الحلکا
لؤلؤ البحر نما من نورها	به الموج طما من نورها
نفتحها صير طينا سنبلًا	وجدها صير ريشا بلبلا
في عروق الكرم منها شعلة	وبطين الكأس منها لمعة
لحنها في مزهر الكون استتر	أيها العازف يدعوك الوتر
نغمات فيك تسري كالدم	أعمل المضراب في ذا النغم
كلمة التوحيد منك المقصد	أنت للتكبير فيها توجد(22)

فكلمة التوحيد هنا تترجم عنها معالم ومعان كونية، حتى إنه لا يخلو منها مظهر من مظاهر الوجود، فهي نقطة ارتكاز هذا العالم، ويؤكددها وحدة نظام هذا الوجود، وبها يدار الفلك، وتنير الشمس ما أظلم من الوجود، واللؤلؤ في البحر اقتبس بعض نورها، وموج البحر ارتفع وتحرك من ضوئها، وعطاؤها جعل الطين سنابل، وما فيها من وجد جعل من الريشة بلبلا يصدح بها في جنبات الوجود، وما في الكرم من ميزة عن كل نبات إنما هو قلب مشتعل شوقا إلى الواحد، وهكذا. ولعل بيت الشعر العربي المعروف لأبي العتاهية:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد(23)

لعل هذا البيت اختصر كثيرا مما قاله إقبال في هذه الأبيات، إلا أن التفصيل الذي حوته أبيات

22- الأسرار والرموز، نقله إلى العربية شعرا: عبد الوهاب عزام، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 227. ويقابله في النص الفارسي قوله:

انتھای کار عالم لاله	نظّم ادوار عالم لاله
مهر را پانندگی رخشدگی	چرخ را از زور او گردندگی
موج در دریا تپید از تاب او	بحر گوهر آفرید از تاب او
مشت پر از سوز او بلبل شود	خاک از موج نسیم گل شود
خاک بینا تابناک از سوز او	شعله در رگهای تاک از سوز او
جویدت ای زخمه در ساز وجود	نغمه هایش خفته در ساز وجود
خیز و مضرابی تار او رسان	صد نوا داری چو خون در تن روان
انتہایش عشق و آغازش ادب	دین سراپا سوختن اندر طلب

زاتکه در تکمیر راز بود تست

23- أبو العتاهية إسحاق بن القاسم، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1406هـ/ 1986م، ص 122.

إقبال قد أثار كثيرا من أفق التوحيد الرحيب، ووضع قلب العابد على معالم واضحة، أو أمثلة لتجليات التوحيد في هذا العالم.

وفي سباحة قلبية أو تجربة ذوقية أخرى مع التوحيد يقول إقبال:

إن هذي الصرخة اليوم التي تفضح أمري صرخة القلب التي خبأتها طيلة عمري
صحبة الله نور ورضا الله حبور... لي من التوحيد نار تلهب العالم بحثا
بك أنفاسي تغني لك تغدو وتروح ذات شجو وحماس وندوب وجروح
أملي أنت وشغلي، طلبي أنت الوحيد وأنا هذا نصيبي غير هذا لا أريد⁽²⁴⁾

إن التجربة الإقبالية هنا قد أثارها زيارته لمسجد قرطبة العتيق، مما يعني أن أفق تذوق التوحيد عنده لا ينتج فقط عن الاستغراق في الصلاة والذكر، ولا حتى التفكير في خلق الله ومصنوعاته العجيبة، بل قد تنتج التجربة - إضافة إلى هذا كله - عن المصنوع الحضاري الخالد لحضارة التوحيد حين يراه بعين روحه، ويبصره في ثنايا الأشعة التي بعثها الإسلام فأبصرت بها البشرية طريقها.

إن مسجد قرطبة الذي زاره إقبال في سنة 1932م لم يبد لناظريه مجرد جدران قديمة قد أحسن السالفون رصفها، وإنما هو - كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي - "صورة للمسلم في هذه الأرض الحنون تجلت فيها أخلاق المسلم وصفاته، علو في المهمة، واتساع في القلب، وبساطة في المظهر، وبراعة في النية، وثبات على الحق، وإعلان للعقيدة والمبدأ، جمع بين الجلال والجمال، والأنفة والتواضع"⁽²⁵⁾. وهو مع هذا فجر طاقة التوحيد الكامنة في قلب إقبال.

وفي رحلة ذوقية أخرى مع التوحيد صاغ إقبال قصيدته "كلمة التوحيد... لا إله إلا الله"، وفي

مفتتحها يقول:

في مقام التوحيد يشدو خيالي بصدى الحق من رجال الحال
إنما تدرك القلوب هداها بصفاء الأحوال لا الأقوال

24- جناح جبريل، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 475 - 476. من قصيدة أردية عنوانها "دعا"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

ہے یہی میری نماز، ہے یہی میرا وضو میری نواؤں میں ہے میرے جگر کا لہو
صحبت اہل صفا، نور و حضور و سرور...

25- أبو الحسن علي الحسيني الندوي، روائع إقبال، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1379هـ/1960م، ص 76.

حرف "لا" مظهر لسر الجلال وهو للجور منذر بالزوال
 بعد نفي الظلام والظلم يبدو عند "إلا" إشراق صبح الجمال⁽²⁶⁾
 ويلاحظ أن "إقبال" فيما تلا من أبيات هذه القصيدة قد عاد من تحليقه في عالم هذه الشهادة
 الواسع ليتواصل مع واقع الأرض، وهو ما يعني أن تحليقه ليس سلبيا ينقطع به عن دنيا الناس، وإنما هو
 زاد الروح التي لا تقدر على الحياة بين عوالم المخلوقات إلا بزيادة التوحيد والإيمان وبنور الله الذي يقذفه في
 قلوب عباده، وهنا تجتمع رسالة الروح المحلقة السابحة في عالم الملكوت والكينونة البشرية الساعية في
 أرض الله للقيام بوظيفة الاستخلاف التي ناطها الله بنبينا آدم.

وإذا كان كثير من الناس لا يمكنه أن يعيش التوحيد ذوقا، ولا أن يطلع على سره، فذلك في رأي
 إقبال راجع إلى تلك الأصنام التي نصبوها في أنفسهم، فحالت بينهم وبين أن يطالعوا صفحة التوحيد
 مجلوة بادية الحسن، كما يرجع ضعف الشعور بهذه الأعماق العميقة للتوحيد إلى أن الفقه - ويعني به علم
 الظاهر - لا يبوح بهذه الأسرار، وإلى استسلام الإنسان لاستعباد الأرض والدنيا له. وعلى من يريد
 الوصول أن يتحرر من تلك العوالم، وألا يكتفي بهذه الظواهر، يقول رحمه الله:

إن سر التوحيد طوع بياني شدت في الرأس موثنا، ما احتيالي؟
 رمز شوق بـ "لا إله" خفي ليس في الفقه بينا، ما احتيالي؟
 كم سرور في حرب حق وزور لست في الحرب مطعنا، ما احتيالي؟
 كم تجلي الآفاق نظرة حر حجب الرق أعينا، ما احتيالي؟
 أي ملك مقام فقر ولكن تؤثر الذل مدعنا، ما احتيالي؟⁽²⁷⁾

26 - والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 894. من قصيدة فارسية عنوانها: "لا إله إلا الله"،

ويقابل موضع الشاهد - مع تداخل مع أبيات تالية وتفصيل في النظم العربي - قوله:

نکتہ نئی میگویم از مردان حال امتان را "لا" جلال "الا" جمال

27 - ضرب الكلميم، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 594. من قصيدة أردية عنوانها "نكتة توحيد"، ويقابل البيتين موضع

الشاهد هنا قوله:

ثالثاً: توظيف إقبال للتوحيد في علاج الأزمة الحضارية للمسلمين:

كان التراجع الحضاري الذي أصاب المسلمين في عصرهم الحديث هما شاغلا للمفكرين والمصلحين المسلمين في مشرق العالم الإسلامي ومغربہ عامۃ، ولعل محاولاتهم تقديم تشخيص واقتراح علاج لهذا التراجع الخطير، هو أكبر جامع فكري اتفقت عليه جمهرة هؤلاء المفكرين منذ حوالي مائتي سنة وإلى الآن.

ولعل محمد إقبال - الذي عاش واحدة من أحلك مراحل هذا التراجع ت 1938م - أحد أبرز المفكرين الذين اعتنوا بدراسة أسباب هذا العطب الإسلامي وتقديم مقترحات لعلاجہ في شعره ونثره، وقد كان التوحيد أحد العناصر التي وظفها إقبال في هذه المسألة.

وإقبال حين يوظف التوحيد حضارياً يتجاوز به مرحلة الإثبات العقلي والإحساس الذوقي إلى أفق واقعي يحتاج إلى أنوار هذا التوحيد، وهذا يعني أن التوحيد الإقبالي ليس توحيدا منعزلا عن الحياة، بل هو المقيم في لبها، يهذب النفوس، ويؤدب الجوارح، ويقاوم الشياطين، ويهد عروش الطغاة.

والحقيقة أن "إقبال" لم يتركنا للحدس كي نفهم موقفه من هذه المسألة، بل ذكر ذلك صراحة في بعض مؤلفاته الأخرى، فقد نقل في تجديد الفكر عن أحد صوفية الهند الكبار قوله: "صعد محمد النبي العربي إلى السموات العلاء ثم عاد، وأقسم بالله لو أنني وصلت إلى هذا المقام فلن أعود أبدا!!"⁽²⁸⁾، ومع أن العبارة قد تبدو صادمة لبعض العقول، ومدهشة لبعضها الآخر، إلا أن التحليل الإقبالي لها يأخذنا من الصدمة والدهشة إلى أفق فكري يحدد من خلاله أصناف العابدين، فمنهم من اقتصر على الذوق وشغلته حلاوته، ومنهم من تذوق أعظم تذوق ونزل مع هذا بياضه ميدان الحياة، يغرس الإيمان في القلوب، ويصنع واقعا أرضيا موافقا له، يقول إقبال معلقا على قولة عبد القدوس الجنجوهي السابقة: "تجربة

تے دماغ میں بت خانہ ہو تو کیا کیجیے	بیاں میں کتے توحید آ تو سکتا ہے
طریق شیخ فقیہانہ ہو تو کیا کیجیے	وہ رمز شوق کہ پوشیدہ لالہ میں ہے
تو حرب و ضرب سے بیگانہ ہو تو کیا کیجیے	سرور جو حق و باطل کی کارزار میں ہے
تری نگاہ غلامانہ ہو تو کیا کیجیے	جہاں میں بندہ حرکے مشاہدات ہیں کیا
روش کسی کی گدایانہ ہو تو کیا کیجیے!	مقام فقر ہے کتنا بلند شانہ سے

28- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف عدس، تقديم: الشيباء الدمرداش العقالي، مكتبة

الإسكندرية، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت، 2011م، ص 203.

التوحد ومقام الشهود عند الصوفي وما يستشعره في هذه الحال من سكينته هي غاية نهائية بالنسبة له، ذروة أشواقه ومنتهى مطامحه. أما بالنسبة للنبي فالأمر جد مختلف، إنها يقظة عارمة لقواه النفسية الجوانية، بداية مهمة روحية من شأنها أن تهز العالم من حوله، تجربة جديدة مقدر لها أن تغير العالم الإنساني وتحوله تحولا كاملا⁽²⁹⁾.

إن شخصية العابد الساكن في قلب التاريخ والجغرافيا، والتي تمثلت في أتم صورها في النبي أظهرته على أنه "الكائن المتناهي الذي يغوص إلى أعماق حياته الروحية اللانهائية، حيث يتلقى من فيض الوحي الإلهي، لا ليقتى هناك متأملا، وإنما ليطفو مرة أخرى صاعدا إلى أعلى بقوة دافعة جديدة، فيحطم القديم، ويكشف عن توجهات جديدة للحياة"⁽³⁰⁾.

فالمهمة النبوية التي ينبغي لأتباعه أن يتخذوه قدوة فيها⁽³¹⁾ تتجاوز الذوق الإياني إلى السعي بهذا الإياني في موطن الاستخلاف الإلهي للبشر الأرض، حيث يعيش المجتمع الإنساني المحتاج بقوة إلى أن يربط سعيه الأرضي برب الوجود.

وإذا عدنا إلى شعر إقبال، فسنجد التوحيد وقد تجلى فيه معلما مميذا للأمة الإسلامية التي حملت - دون غيرها - لواء صافيا في العالمين، ففي حين توزعت البشرية معبودات أرضية وسماوية من حجر وشجر وأصنام وكواكب ونجوم، كان المسلمون يهتفون باسم الله الواحد في أذانهم وصلاتهم وحجهم وجهادهم، حتى هدوا الشعوب التائهة والأمم الضالة إلى ربها:

من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا	من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا تماثيل الصخور وقدسوا	من دونك الأحجار والأشجارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة	لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا	وهدى الشعوب إليك والأنظارا ⁽³²⁾

29- المرجع السابق، ص 203 - 204.

30- المرجع السابق، ص 205.

31- المرجع السابق، ص 205 - 206.

32- صلصلة الجرس، نقله إلى العربية نثرا ثم صاغه شعرا الشيخ الصاوي شعلان، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 94. من قصيدة "شكوه" الشهيرة، وقد كتبها الشاعر بالأردية، ويقابل الأبيات موضع الشاهد قوله:

فالتوحيد هنا رمز وعلامة وشعار للأمة المسلمة، وهي حاملته وناشرته ومسوقته في العالم، وهادية المجتمعات الإنسانية إليه، فقد حازته لنفسها أول مرة، إلا أنها لم تستأثر به، بل طارت به في دنيا البشر تذييعه وتعبده به الناس لرب العالمين وحده، بعد أن كانت الجهالة والوثنية والشرك هي الحاكم الأكبر في دنيا الناس.

وقد فرض "إقبال" فكره على شعره كثيرا، فلم يكن مجرد مشاعر مرسله، ولا رمية من غير رام، بل بدا واضحا أنه يصوغ أفكارا في إهاب شعر رقيق، ويقدم معاني إصلاحية في ثوب من قريض محلق، وبدا توحيد الله تعالى إحدى أدواته الأهم في هذا المضمار الصعب، مضمار إصلاح الأمم والشعوب وتصويب مسارات المجتمعات، وقد تأكد هذا في عناوين قصائده كما تأكد في أبياته، فمن عناوين قصائده في ديوان الأسرار والرموز قصيدته "في معنى أن الخوف والحزن واليأس أمهات الخبائث وقاطعات طريق الحياة وأن في التوحيد دواء هذه" (33).

وإذا كانت وظيفة التوحيد في هذه القصيدة وظيفة سلبية، حيث يقاوم الأخلاق الرديئة، ويعالج أمراض القلوب والنفوس، فقد بدا دوره إيجابيا تماما في مواضع أخرى كثيرة من شعره، فصوره إقبال على أنه المرتكز أو الركن الأول الذي تقوم عليه الأمة الإسلامية، أو هو المحدد الأول لشخصيتها (34)، كما عنون قصيدة أخرى في الديوان نفسه بـ: "في بيان أن الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد فلا تحدها الأمكنة" (35)، وجعل "مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره" (36) في قصيدة ثالثة.

وقد امتد أفق العالم واتسع أمام إقبال حين رآه من سماء التوحيد، ولم يجس نفسه فيها تحت قدميه

ورنہ امت ترے محبوب کی دیوانی تھی؟ ہم سے پہلے تھا عجب تیرے جہاں کا منظر
کہیں مہبود تھے پتھر، کہیں مہبود شجر خوگر پیکر محسوس تھی انساں کی نظر
مانتا پھر کوئی ان دیکھے خدا کو کیونکر تجھ کو معلوم ہے، لیتا تھا کوئی نام ترا؟

33- الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 197. وبالفارسية: "در معنی اینکه یأس و حزن و خوف ام الخبائث است و قاطع حیات و توحید ازاله این امراض خبیثه می کند".

34- الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 195. وبالفارسية: "ارکان اساسی ملیه اسلامی: رکن اول: توحید".

35- الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 207. وبالفارسية: "در معنی اینکه چون ملت محمدیه مؤسس بر توحید و رسالت است پس نهایت مکانی ندارد".

36- الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 225. وبالفارسية: "در معنی اینکه جمعیت حقیقی از محکم گزفتن نصب العین ملیه است و نصب العین امت محمدیه حفظ و نشر توحید است".

من الثرى، لذلك ألح كثيرا على رفض فكرة القومية، وجعل الارتباط القائم على العقيدة هو الأصل في الصلة بين الناس، وما دونه من ارتباط بالقوم أو الوطن اعتبره صورا سائفة للتلاقي البشري، فيقول عن النبي صلى الله عليه وسلم:

أمة ملء الدنيا قد أسسا	جعل التوحيد فيها أسسا
صارت الدنيا لنا مسجدا	إذ أشاع الفضل فينا وهدى...
شرف الشمس مسير مطلق	فيه من فوق البرايا تخفق
لا تكن نهرا من السحب يمد	وكن البحر عابا لا يجد
اقصدن تسخير كل العالم	لترى سلطان أهل العالم
لا يقيدك مقام في الورى	وكن الحوت يسيح الأبحرا
كل من حرر من ذل الجهات	فلك يزهر من كل الجهات
ترك الورد شذاه فسرى	في فسيح المرج عطرا نشرا ⁽³⁷⁾

وكان الفكرة القومية - بصيغها المتطرفة على الأقل - تمثل أحد العراقيل التي يمكن أن تحول دون نهضة المسلمين، وأنه لا بد من ضبط النزوع القومي والخروج من أسره وضيق أفقه، وإعادة الناس إلى الأصل الذي جمعهم عليه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو التوحيد والإيمان والإسلام. ويوظف إقبال فكرة التوحيد في التأكيد على وحدة الأمة، والابتعاد عن النعرات القومية التي فرقت المسلمين في مواضع وبصور متعددة، فيقول في حوارية أجراها مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

37- الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 209. من قصيدة "در معنی اینکه چون ملت محمدیه مؤسس بر توحید و رسالت

است پس نهایت مکالی ندارد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

عکتش یک ملت گیتی نورد	بر اساس کلمه کی تغییر کرد
تا ز بخششای آن سلطان دین	مسجد ما شد هم روی زمین...
مهر را آزاده رفتن آبروست	عرصه ی آفاق زیر پای اوست
تپجو جو سرمایه از باران نخواه	بیگران شو در جهان پایان نخواه
بود بحر تلخ رو یک ساده دشت	ساحلی ورزید و از شرم آب گشت
بایدت آبتگ تنخیر هم	تا تو می باشی فراگیر هم
صورت ماهی به بحر آباد شو	یعنی از قید مقام آزاد شو
هر که از قید جهات آزاد شد	چون فلک در شش جهت آباد شد
بوی گل از ترک گل جولاگر است	در فراخای چمن خود گسترست

قلت: يا صفوة أصحاب الصفاء	مطلع الديوان من أهل الوفاء
بك قر الأس في ببياننا	فانظرن ما الطب من أدوائنا؟
قال: حتام أسير الوهم؟	سورة الإخلاص براء السقم
نفس في كل صدر جائل	وهي للتوحيد سر هائل
فاجل هذا السر في كل الفعال	ولتكن منه مثالا للجمال
الذي سماك عبدا مسلما	بك للوحدة في الدنيا سما
قلت: أفغان وترك وعجم	لم تزل عما تعودت القدم
طهرن الحق من هذي السمات	اقصد البحر وخل القنوات
يا أسيرا لسمات ويحكا	قد بعدت اليوم من دوحثكا...
عابد الواحد، وحد واهجرن	كل تفريق وللحق ارجعن(38)

ولعل اختيار الشاعر أبا بكر لإجراء هذا الحوار معه يرجع إلى ما مثله في التاريخ الإسلامي من نموذج للعربي القح الذي جمعه الدين مع ممثلين عن أمم شتى، فرس وحيش وروم، حتى ذابت العصبية الجاهلية. كما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أول من جمع المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلمة واحدة، وواجه بهم الأخطار التي هددت وجود الإسلام برمته.

38 - الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 237-238. من مقطوعة "خلاصة مطالب مثنوى در تفسير سورة اخلاص.."

قل هو الله احد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

گفتش ای خاصه خاصان عشق	عشق تو سر مطلع دیوان عشق
پخته از دستت اساس کار ما	چاره کی فرما پی آزار ما
گفت تا کی در هوس گردی اسیر	آب و تاب از سوره اخلاص گیر
اینکه در صد سینه پیچید یکت نفس	سری از اسرار توحید است و بس
رنگ او بر کن مثال او شوی	در جهان عکس جمال او شوی
آنکه نام تو مسلمان کرده است	از دوئی سوی یکی آورده است
خوشتن را ترک و افغان خوانده کی	وای بر تو آنچه بودی مانده کی
داربان نامیده را از نامها	ساز با خم در گذر از جامها
ای که تو رسوای نام افتاده کی	از درخت خویش خام افتاده کی
با یکی ساز از دوئی بردار رخت	وحدت خود را مگردان لخت لخت...
تو در خود را بنمود پوشیده کی	در دل آور آنچه بر لب چیده کی

وقد سأله الشاعر هنا عن علاج لداء الأمة، وقصد به الفرقة والتشردم، فأشار إلى أن سورة الإخلاص التي تكثرون قراءتها، فهي "نفس جائل في كل صدر" - فيها هذا الدواء الذي تبحث عنه، فهي "للتوحيد سر هائل"، ولم يبين له هذا السر بصراحة، غير أنه طالبه بأن يتجلى توحيده لله في أفعاله حتى يكون مثالا للجهال، ويترك عادات الجاهلية التي دنست صورة الحق، وفرقت الأمة إلى أفغان وترك وعرب وعجم، والأولى أن يبقى على الأصل تاركا هذه الفروع: "اقصد البحر، وخل القنوات".

وفي القصيدة نفسها "خلاصة المطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص" وتحت عنوانها الفرعي "لم يلد ولم يولد" واصل الشاعر أنفاسه وأطالها في الدعوة إلى هجران القومية، ودعا المسلمين، أهل التوحيد إلى توحيد صفهم وكلمتهم، ومن شعره في هذا الصدد قوله:

ما من الأنساب يقوى وصلنا ليس من روم وعرب يقوى أصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب قد حباننا ذاكم الوصل القريب...
من ثوى في نسب أو بلد قد غفا عن ريب ريب يث (39)

وإضافة إلى القومية، فإن الأمم الحديثة قد صنعت لنفسها أصناما أخرى من المملدات والمطامع دفعتها دفعا إلى إيقاع الظلم بغيرها، ولا يحطم هذه الأصنام سوى التوحيد، يقول إقبال:

يعشق الأصنام عقل الأمم ناحت أو عابد للصنم
هو أحيا سنة من آزرا محدثا فيها إلها للورى...
وعلى أقدام هذا الصنم ذبح الإنسان ذبح الغنم
أيها الشارب من كأس الخليل يا حمي النفس من طاس الخليل
سيف "لا موجود إلا هو" خذ وبه الأصنام هذه فاجذذ (40)

39 - الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 242. من قصيدة "خلاصة مطالب مثنوى در تفسير سورة اخلاص... لم يلد ولم يولد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

نمیت از روم و عرب پیوند ما نمیت پابند نب پیوند ما
دل به محبوب حجازی بست ایم زین جبت با یکدیگر پیوسته ایم...
هر که پا در بند اقلیم و جد است بی خبر از لم یلد لم یولد است

40 - الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 228. من قصيدة "در معنی اینکه جمعیت حقیقی از حکم گرفتار نصب العین ملیه است و نصب العین امت محمدیه حفظ و نشر توحید است"، والأبيات موضع الشاهد هي قوله:

وإقبال يلح من حين إلى آخر على أن التوحيد ليس فقط علاجاً لمشكلات نفسية وعقلية يسببها الإلحاد والحيرة، بل هو أيضاً مهذب للفرد الذي ينفعل به ويلتزم سبيل التقوى، وكذلك يخرج الأعاجيب من الأمم التي تعتنقه، يقول:

يرفع التوحيد فرداً بالتقاة يجعل الشعب أحاديث الرواة
وعن الشبلي سمعت وأبي ذر طغرل كان لشعب ثم سنجر
بالتجلي كان للمرء الثبات إنه للفرد والشعب الحياة
ولقد نالا بتوحيد كمالاً حققا هذا جلالاً ذا جمالاً (41)

وهذا المقطع يشترك في التنويه بتأثير التوحيد على الفرد وكذلك تأثيره على المجتمع، وإن كان الأول أكثر وضوحاً فيه، حتى ضرب لنا مثلاً ببعض صوفية الزمن الماضي وزهاده الذين فاقوا الملوك جلالته ومكانته في أمتهم، أو كانوا مثل أعظم الملوك "مثل بعض ملوك السلاجقة العظام مثلاً"، وهنا يبدو الموحد الحقيقي عامل قوة كبيراً لأتمته.

وقد تجلت قيمة الشخصية الموحدة في روعة في إحدى قصائد ديوانه "جناح جبريل"، ومنها قوله:

توحيد الله لنا نور وحياة القلب توحده
لو كل رياح في الدنيا اجتمعت لا تقدر تحمده
يحكيك جمالا وجلالا رجل لله تعبده

فكر انسان بت پرستی بت گرمی
باز طرح آزری انداخت است
آدمیت کشته شد چون گوسفند
ای که خوردستی ز مینای غلیل
بر سر این باطل حق پیرهن
هر زمان در جستجوی پیکری
تازه تر پروردگاری ساخت است...
پیش پای این بت نارجمند
گرمی خونت ز صهای غلیل
تبع "لا موجود الا هو" بز

41- رسالة الخلود - جاويد نامه، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 858 - 859. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات

موضع الشاهد هنا قوله:

فرد از توحيد لاهوتی شود
با بيزيد وشبلی وپوزر ازوست
بی تجلی نیست آدم را ثبات
هر دو از توحيد می گیرد کمال
ملت از توحيد جبروتی شود
امتان را طغرل و سنجر ازوست
جلوة ما فرد وملت را حیات
زندگی این را جلال، آزرا جمال

وحماس ضحاه ووجد مساه وما يخفيه له غده
ومسرته ومحبتہ وتواضعه وتودده
عذب الكلمات خفيف الروح رقيق القلب مسهده (42)

فهنا يبدو التوحيد قوة توظف ملكات النفس، وتنبه قواها الغافية، هو نور يملأ جنبات النفس المؤمنة، ويجبي القلب بتوحيد الوجهة التي يقصدها، والبعد عن شتات الشرك وضيعة الإلحاد. ولهذا التوحيد من القوة ما يعجز ذوي القوة عن إخماده أو إخماله، فهو يصوغ شخصية صاحبه من مزيج الجمال والجلال، وينشطه للعمل بالنهار، ولعيش رحلة المواجد بالليل، والثبات أمام أقدار الله الزاحفة عليه بالمرات مرة وبالضراء مرة في كل وقت، بل إن قسماته الأخلاقية ليصوغها التوحيد حين يخالط الناس بالمسرة والمحبة والتواضع وحسن الكلام ورقة القلب.

ثم يقول إقبال في القصيدة السابقة من جاويد نامہ مشیرا إلى منزلة الأمة الموحدة في العالمين:

ولأهل الحق دعوى وحدت ولهم قلب ودور أبعدت
تصبح الذرة شمسا بالنظر نظرة كن، والإله ما استتر
نظرة بالله كيف تزدريها والتجلي كان للتوحيد فيها
وإذا التوحيد شعبا أسكرا فمكان الشعب في أعلى الذرى
إن روح الشعب بين الناس كانت للحلول قط جسما ما أرادت
باجتماع القوم للروح البقاء والثبات فيه للروح الفناء (43)

42 - جناح جبریل، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 479. من قصيدة أردية عنوانها "مسجد قرطبه (ہسپانیہ کی سرزمین بالخصوص قرطبه میں لکھی گئی)"، ويقابل البيتين موضع الشاهد هنا قوله:

نغمہ اللہ ہو میرے رگت وپے میں ہے تیرا جلال و جمال ، مرد خدا کی دلیل
وہ بھی جلیل و جمیل ، تو بھی جلیل و جمیل تیری بنا پائدار ، تیرے ستوں بے شمار
شام کے صحرا میں ہو جیسے نجوم نخیل تیرے در و بام پر وادی ایمن کا نور

43 - رسالة الخلود - جاويد نامہ، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 860. من قصيدة "حضور"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

والتوحيد في نظر إقبال يعلم صاحبه الشجاعة والإقدام، لأن الموحد الحقيقي يؤمن بأن مقدر الأقدار واحد عدل، وهو الله تعالى، فلا إنس ولا جن، ولا وحش مفترس ولا طير جارح يملك من قدره هو - فضلا عن قدر غيره - شيئاً، ومقدر الأقدار له حكم فيما يجريه في كونه وعلى خلقه، ولكن - وهو يتصرف في ملكه لا ملك غيره - لا يظلم أحداً شيئاً، يقول إقبال متحدثاً عن أمجاد المسلمين:

لم نخش طاغوتا يجاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا
ندعو جهارا لا إله إلا الذي صنع الوجود وقدر الأقدار(44)

ويتسع إقبال في بيان خصال الموحد وتأثيره في العالم، فيذكر أن إيمان المؤمن ليس حبيس قلبه، بل يتعدى أثره إلى هذا العالم الواسع، ويتجلى خلقا وسلوكا في حياة البشر، يقول تحت عنوان: ژٹ ٹ ڈ ٹژ:

صاح ما المسلم للنديا احتقر عامرا بالحق قلبا، قد عمر
زهرة من شقر في القنن لم ترعها طلعة من مجتن
نفسا ينفخ فيها السحر فتراها هبا يستعـرـر..
الندى منها نعاسا يغسل وشعاع الشمس بها قبل
ژٹ ٹژ أمسك بها واشدد يدا لترى في الناس حرا أوحدا
ذلك الواحد لا شرك له عبده يأبى شريكا مثله
قد سما المسلم أعلى من سما ليس يرضى بمسام في السما..

چیت ملت ایک گوئی لالہ اہل حق را حجت و دعویٰ یکیت
زہرہ ہا از یک نگاہ آفتاب یک نگاہی را بچشم کم مبین
ملتی چون می شود توحید مست قوت و جبروت می آید بدست
روح ملت نیست محتاج بدن روح ملت نیست محتاج بدن
تا وجودش را نمود از صحبت است مرد چون شیرازہ صحبت نکست

44- صلصلة الجرس، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 94 - 95. من قصيدة "شكوه" الشهيرة، وقد كتبها الشاعر

بالأردنية، ويقابل البيتين موضع الشاهد قوله:

ہم جو جیتے تھے تو جنگوں کے مصیبت کے لیے اور مرتے تھے تڑے نام کی عظمت کے لیے

حمل الكونين طهرا ظهره	وحوى برا وبحرا صدره..
جمره كل لهيب في حشاه	جوهر فيه كمال للحياه
ليس في ضوضاء هذي الأمم	نغمة إلا أذان المسلم
هو في العفو وفي البذل عظيم	وهو حين القهر ذو طبع كريم
لطفه في الحفل جبر المنكسر	قهره في الحرب صهر للحجر
هو في الحفل صغير البلبل	وهو في البيد انقضاض الأجدل
قلبه تحت ساء لا يقر	هو فوق الزهر من إن يستقر
طائر ينقر نجم الحبك	طائرا فيها وراء الفلك ⁽⁴⁵⁾

وهي مجموعة من الصفات تعبر عن قوى نفسية وعقلية وجسدية تجتمع للمسلم الموحد على الحقيقة فتجعله أسطورة "حقيقية" في هذا العالم، فهو نغم رقيق كما البلبل في الحفل، وهو صقر شديد الانقضاض في الحرب، هو لطيف حان يجبر المنكسر وقت السلام، ولكنه في الحرب يصهر الحجر، وهو مع هذا يعيش هموم العالم ومشاغله.

ويبقى الإلحاح الإقبالي على عقيدة التوحيد بمعناها الواسع والعميق معلما واضحا في شعره،

45 - الأسرار والرموز، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 243. من قصيدة "خلاصه مطالب مثنوی در تفسیر سورة اخلاص.. ولم يكن

له كفوا أحد"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد هنا قوله:

فطرت این دل بحق پیوسته چیست؟	مسلم چشم از جهان بر بست چیست؟
گوشه دلمان زخمینی ندید	لاله کی کو بر سر کوی دمید
از نفس های نخستین سحر...	آتش او شعله کی گیرد پ بر
شبنم از پیشش بشوید گرد خواب	بوسدش اول شعاع آفتاب
تا تو در اقوام نی بهتا شوی	رشته کی با لم یکن باید قوی
بنده اش هم در سازد با شریک	آنگه ذاتش واحد است و لا شریک
غیرت او بر نتابد همسری...	مؤمن بالای هر بالاتری
بجز و بر پرورده آغوش او...	می کشد بار دو عالم دوش او
زندگی گیرد کمال از جوهرش	در گره صد شعله دارد انگرش
نغمه پیدا نیست جز تکبیر او	در فضای این جهان پای و هو
هم بقصر اندر مزاج او کریم	عفو و عدل و بذل و احسان عظیم
سوز او در رزم با آهن گداز	ساز او در بزم با خاطر نواز
در نیایان جره باز صید گیر	در گلستان با عنادل هم صغیر
بر فلک گیرد قرار آب و گلش	زیر گردون می نیاید دلش
آنسوی این کهنه چنبر بر زند	طایرش منتظر بر اختر زند

حتیٰ إنه ربما صاغ فيه القصيدة الكاملة التي تقدم التوحيد أساسا لمشروع نهضوي للفرد والمجتمع، فيحقق للفرد ذاته، ويرقى بأحاسيسه، ويسمو بأهدافه، ويقوي ساعده، ويؤلف بين أبناء المجتمع، ويوجههم إلى خير الإنسانية وصلاحتها، فالتوحيد يفتح باب الحياة، ولا يقبل أن ينزول أو ينزوي، بل يمضي بصاحبه إلى قلب الحياة الاجتماعية قاهرا المهانة ورافضا الذل، ومتمتعا باليقين، ومن أمثلة ذلك قصيدته "لا إله إلا الله" في ديوان: پس چه بائد کرد اے اقوام شرق، أو والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، ولعل بعض الشواهد الشعرية السابقة قد تناولت شيئا من هذا، إلا أنه أضاف في هذه القصيدة تقديم نموذج لأمة التوحيد في زمانها الأول وكيف بالتوحيد سجلوا آيات الفخار:

يا لها من ذكرى لأجداد العرب	آية كبرى وتاريخ عجب
حرروا أقدارهم بالعزمات	في جميع الكون في كل الجهات
فازدهى من نورهم كل مكان	وتغنى باسمهم كل زمان
لم تدم "عزى" ولم تبق "مناة"	هوت الأصنام تحت الضربات..
هؤلاء العرب الصيد الأباه	وحدوا الخلق بتوحيد الإله..
وسموا فوق الدراري منزلا	كل هذا كان من أنوار "لا"
بينما العالم كالعظم الرميم	في سهوب الأرض أو دير قديم
أنشأوا دنياه في خلق جديد	وأقاموها على النهج الرشيد..
قد أزال العرب من لوح القلوب	نقش غير "الله" علام الغيوب
فأقاموا في شمال وجنوب	ثورة الإيمان في كل الشعوب(46)

46- والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، أعمال محمد إقبال الكاملة، ص 894-897. والشاهد من قصيدة فارسية عنوانها:

"لا إله إلا الله"، ويقابل الأبيات موضع الشاهد قوله:

با تو میگویم ز ایام عرب	تا بدانی پیخته و خام عرب
رز ریز از ضرب او لات و منات	در جهات آزاد از بند جهات
هر قبای کهنه چاک از دست او	قیصر و کسری هلاک از دست او
گاه دشت از برش و بارانش بدرد	گاه بحر از زور طوفانش بدرد
عالمی در آتش او نیشل خس	این همه هنگامه "لا" بود و بس
اندرین دیر کس چیمم تپید	تا جمانی تازه کی آمد پدید
بانگ حق از صبح نیزیهای اوست	هر چه هست از تخم رزیههای اوست
اینکه شیخ لاله روشن کرده اند	از کتار جوی او آورده اند
لوح دل از نقش غیر الله شست	از کف خاکش دو صد هنگامه رست

وأحسب أن هذا موضع مناسب للمغادرة، فأختم بهذا النموذج العملي للإنجاز العظيم الذي حققته أمة التوحيد لأول عهدها بهذا العالم، فقد انطلقت به تعبد الناس لله الواحد، وتهدم الأصنام في النفوس قبل أن تهدمها في الواقع المحيط، وتنشط القوى الكامنة في البشر حتى تتجه إلى الثورة على كل باطل، ومدافعة كل منكر.

***Tawhīd* in the Poetry of Muhammad Iqbal**

Without going into the intricacies of theological discussions or the depths of Sufi musings on this cardinal doctrine of Islam, the writer presents an analysis of the central space occupied by *tawhīd* in the poetry of Iqbal. He demonstrates the superb genius of Iqbal in relating this doctrine to the existential problems and plights of the present day Muslims. The writer extensively cites from the Urdu and Persian poems of Iqbal to show how this great poet philosopher linked the wholesome development of man with the operationalization of *tawhīd* in human thought and conduct. Additionally, the writer shows the depth of Iqbal's poetic imagination in capturing the multi-layered aspects of this fundamental doctrine.
